بالمواد الأرضية والحكم عليها بوحدة المصدر والغاية . وهذا ماأربك الأجيال الطالعة وأجج قلقها وحيرتها . فنظرة الغرب إلى الدين في أحسن الأحوال نظرته إلى أيّ من العلوم الإنسانية الناتجة عن جهد الآدميين ومحاولاتهم في تلمس سبل الحياة وتصويرها. فالأدب بالمعنى الغربي له وسيلة وغاية معاً ، وكذلك العلم ، وكذلك الإنتاج بكل وجوهه الفكرية والمادية . أما في الإسلام ، فإنه آلة وأداة تنشيط للدلالة على مايقع ورائها . . .

. . والإشارة إلى ماقد وقع خلفها ، وذلك من خلال تكوينه لصورة الحياة بجملة أبعادها، وإبرازه لسمات التواصل بين هذه الأبعاد ، على الرغم من حواجز الزمان والمكان .

وفي الفصل الثالث يلفت انتباهنا أمر هام ربما غفل عنه العديد من أهل الإسلام، وهو القدرة العجيبة للأدب الإلهي في التعبير عن المبادئ والقيم بكل ماتشتمل عليه من إبداعات وجمالات . فحينما يتناول الإسلام مبدأ التوحيد ، مثلاً،ثم يتمكن من عرضه وتوضيحه وإقامة الحجة على الخلق سائرهم بشأنه،يكون بذلك قد ارتفع بشكل حاسم إلى المحل الذي لايرقى إليه فكر مهما تطاول،أو يساويه أدب مهما تقاوىٰ ، أو يملك التقليب فيه نظرمهما توقد وتجدّد .

فنحن نرى دائماً عجز الآداب اللاإسلامية عن حسم النزاع الفكري الذي تخلّفه في الناس طروحاتها حول المبادئ العامة للحياة والقيم الكبيرة التي تقودها ، بينما تتساوق في الإسلام حركة الأدب والفكر ، أي الأدب والدين ، وتترافق بشكل لايملك المطلع فصلاً لأحدهما عن الآخر ، كما لايملك إزاء تلاحمهما إلا قبولهما معاً أو إنكارهما معاً . إن الغرب مدعوّ بنتيجة هذا العجز إلى إجراء تبديل دائم في مفاهيمه الأدبية حيناً والدينية حيناً آخر ، وهو يدّعي أن عمله هذا هو مظهر من مظاهر التطوروالمدنية . أما الإسلام فقد كفاه البارئ تعالى بهذه الخصائص وحفظه بفضلها وبركاتها .